الفتوحات الإسلامية
2

فتح إفريقيا (٢)



كَانَتْ أَهَمُّ صِفَاتِ الْمُجَاهِدِينَ الأَوَائِلِ مِنْ قُوَّادِ الْمُسْلِمِينَ الاسْتِهَانَةَ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، مَعَ قُوَّةِ الإِيمَانِ بِاللهِ .. وَهَذِهِ الصِّفَاتُ هِيَ الَّتِى أَهَّلَتْهُمْ لِنَشْرِ دِينِ الإِسْلاَمِ فِى كُلِّ أَرْجَاءِ الْكُرَةِ الأَرْضِيَّةِ ..

وَكَانَ هَؤُلاَءِ الْقَادَةُ الْعُظَمَاءُ مُضْطَرِّينَ إِلَى خَوْضِ مَعَارِكَ كَثِيرَةٍ قَاتَلُوا فِيهَا بِكُلِّ شَجَاعَةٍ وَاسْتِبْسَالٍ ، قَبْلَ أَنْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ تَثْبِيتِ أَقْدَامِهِمْ فِى الشَّاطِئِ الشَّمَالِىِّ لِلْقَارَّةِ الإِفْرِيقِيَّةِ .. وَلَمْ تَكُنْ حُرُوبُ هَؤُلاَءِ الْقَادَةِ فِى شَمَالِ إِفْرِيقْيَا قَاصِرَةً عَلَى مُكَافَحَةِ الْجُيُوشِ الْبِيزَنْطِيَّةِ الْمُرَابِطَةِ عَلَى الشَّاطِئِ لِحِمَايَةِ الْمَنَاطِقِ الْخَاضِعَةِ لِنُفُوذِ الرُّومِ ، وَكِنَّهُمْ كَانُوا مُضْطَرِّينَ كَذَلِكَ إِلَى صَدِّ هُجُومِ الْبَرْبَرِ مِنْ سُكَانِ الْمَغْرِبِ الْعَرَبِىِّ الْخَاضِعِينَ لِحُكْمِ الرُّومِ .

كَمَا أَنَّ شُعُورَ الأُورُوبِّيِّينَ بِالْمَدِّ الإِسْلاَمِىِّ الزَّاحِفِ نَحْوَهُمْ رُوَيْدًا رُوَيْدًا ، قَدْ جَعَلَ جُيُوشَ هِرَقْلِ الْمُسَلَّحَةِ ، تُسْرِعُ مِنَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، لِتَعْبُرَ الْبَحْرَ الْمُتَوَسِّطَ مَعَ جُيُوشِ الْقُوطِ الْقَادِمَةِ مِنْ إِيطَالْيَا ، لِيُقَدِّمُوا الْعَوْنَ لِمَدِينَةِ (قَرْطَاجَنَّةَ) الْقَدِيمَةِ ، الَّتِى يَتَهَدَّدُهَا خَطَرُ الْفَتْحِ الإِسْلاَمِىِّ ..

وَلَكِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ لَمْ يُجْدِ شَيْئًا ، فَقَدْ سَقَطَتْ (قَرْطَاجَنَّةُ) وَدُكَّتْ مَعَالِمُهَا الْوَثَنِيَّةُ تَحْتَ مَطَارِقِ الْفَاتِحِينَ الْمُسْلِمِينَ الأَقْوِيَاءِ الَّذِينَ جَاءُوا مُبَشِّرِينَ وَنَاشِرِينَ لِدِينِ اللهِ فِى الأَرْضِ ..

وَتَبْدَأُ قِصَّةُ الْفَتْحِ الثَّانِى لإِفْرِيقْيَا فِى عَهْدِ خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ (مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِى سُفْيَانَ) ..

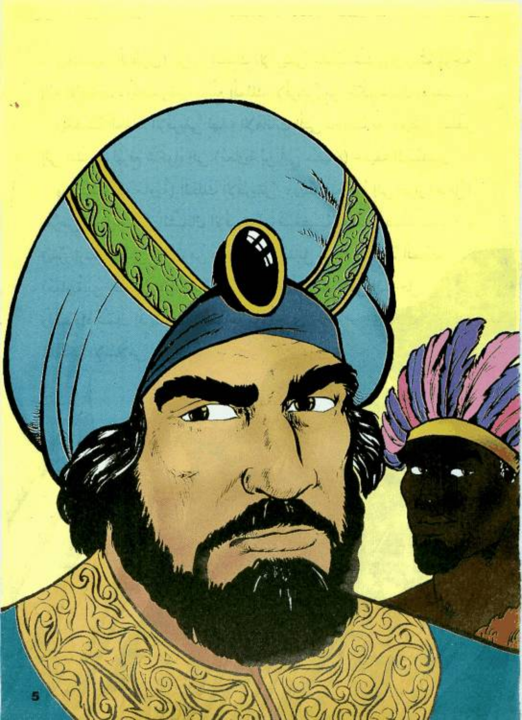


فَقَدْ كلَّفَ (هِرَقْلُ) إمْبراطُورُ الرُّوم فِى ذَلكَ الْوَقْت أحَدَ الْبَطَارِقَة التَّابِعِينَ لَهُ ، وَأَمَرَهُ بِالرَّحِيلِ بَحْرًا إلَى إفْرِيقْيَا ، ثُمَّ النُّزُول فِى مَدِينَة (قَرْطَاجَنَّة) وَالدَّعْوَة إلىَ عَقْدِ اجْتِمَاع عَاجِل لِجَمِيع حُكَّام الْمُدُن وَالأَقَالِيم الإفْرِيقيَّة التَّابِعَة لِنُفُوذ (الْقُسْطَنْطِينيَّة) عَاصِمَة الرُّوم ، وَمُطَالَبَة هَؤُلاء الْحُكَّام بِضَرُورَة الْعَوْدَة إلىَ دَفْع الْجِزْيَة الَّتى امْتَنَعُوا عَنْ أدَائهَا إلَى (هِرَقْلَ) بَعْدَ فَتْح الْمُسْلِمينَ لِبِلادِ الشَّمَالِ الإفْرِيقِىِّ عَلَى يَدَى الْقَائِد الْمُسْلِم (عَبْد الله بْن أبى السَّرْح) . .

وَيُسَارِعُ الْبَطْرِيقُ بِالسَّفَر إلَى مَدِينَة (قَرْطَاجَنَّة) عَنْ طَرِيق الْبَحْر ، وَيُسَارِعُ بِدَعْوَة حُكَّام الْمُدُن وَالأقَاليم الإفْرِيقيَّة - وَعَلىَ رَأْسِهِمْ الْمَلِكُ الأفْرِيقِىُّ حَاكِمُ وِلاَيَاتِ الشَّمَال الإفْرِيقِىِّ - وَيَعْقِدُ مَعَهُمْ اجْتمَاعًا عَاجلاً يُبْلغُهُمْ فيه بِضَرُورَة الْعَوْدَة لِدَفْع الجِزْيَة إلى (هِرَقْلَ) كَمَا كَانَ يَحْدُثُ قَبْلَ فَتْح الْمُسْلِمينَ لِشَمَال إفْرِيقْيَا . .

وَيَرْفُضُ الْمَلِكُ الإفْرِيقىُّ الْعَوْدَةَ إلَى دَفْع الْجِزْيَة إلَى الْبَطْرِيق رَسُول هِرَقْلَ ، وَيَقُولُ لَهُ إنَّهُ يُؤَدِّى الْجِزْيَةَ لِخَلِيفَة الْمُسْلِمِينَ فِى الشَّام . .





وَيَغْضَبُ (الْبَطْرِيقُ) مِنْ رَدِّ الْمَلِكِ الإفْرِيقِىِّ غَضَبًا شَدِيدًا .. ثُمَّ يُوَجِّهُ إِلَيْهِ الإهَانَاتِ ، وَيُصْدِرُ أَمْرًا بِخَلْعِ الْمَلِكِ الإفْرِيقِىِّ مِنْ حُكْمِ شَمَالِ إفْرِيقيَا ..

وَيَغْضَبُ الْمَلِكُ الإفْرِيقِىُّ لِهَذِهِ الإهَانَاتِ الَّتِى لَحِقَتْ بِهِ ، وَيُقَرِّرُ السَّفَرَ إِلَى الشَّامِ ، لِيَرْفَعَ شَكْوَاهُ إِلَى (مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِى سُفْيَانَ) خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ ..

وَيَسْتَقْبِلُ (مُعَاوِيَةُ) الْمَلِكَ الإفْرِيقِىَّ ، وَيَسْتَمِعُ مِنْهُ إِلَى قَرَارِ (هِرَقْلَ) بِفَرْضِ الْجِزْيَةِ عَلَى الشَّمَالِ الإفْرِيقِىِّ ، فَيَغْضَبُ لِذَلِكَ غَضَبًا شَدِيدًا ، وَيُقَرِّرُ إِرْسَالَ جَيْشٍ مُكَوَّنٍ مِنْ عَشْرَةِ آلافِ مُقَاتِلٍ يَقُودُهُمُ الْقَائِدُ الْمُسْلِمُ (مُعَاوِيَةُ بْنُ حُدَيْجٍ) لِقِتَالِ الْجُيُوشِ الرُّومِيَّةِ الْمُرَابِطَةِ عَلَى السَّاحِلِ وَاسْتِرْدَادِ شَمَالِ إفْرِيقْيَا ، وَإِخْضَاعِهِ مَرَّةً أُخْرَى لِلْحُكْمِ الإسْلامِىِّ ..

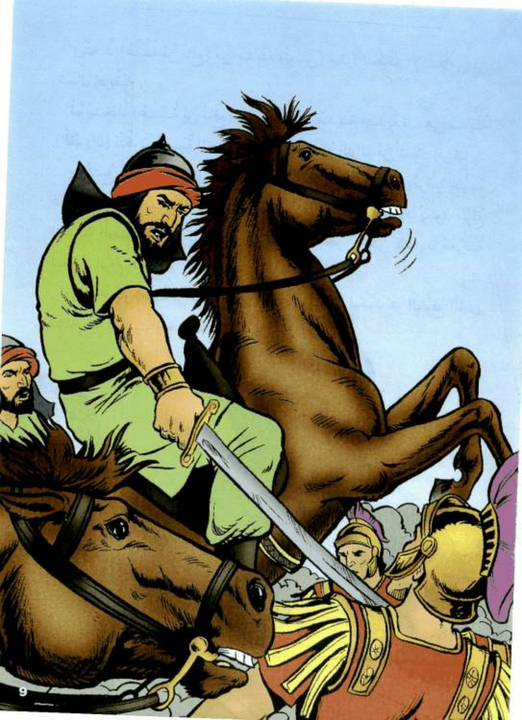
وَيَعْلَمُ (هِرَقْلُ) بِقَرَارِ (مُعَاوِيَةَ) إِرْسَالِ جَيْشٍ مُسْلِمٍ إِلَى شَمَالِ إفْرِيقْيَا ، فَيُسَارِعُ هُوَ أَيْضًا بِإِرْسَالِ مَدَدٍ لِلبَطْرِيقِ ، عِبَارَةٍ عَنْ جَيْشٍ مُكَوَّنٍ مِنْ ثَلاثِينَ أَلْفَ مُقَاتِلٍ لِلتَّصَدِّي لِجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ .

وَيَلْتَقِي الْجَيْشَانِ .. جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ بِقِيَادَةِ (مُعَاوِيَةَ بْنِ حُدَيْجٍ) وَجَيْشُ الرُّومِ بِقِيَادَةِ (الْبَطْرِيقِ) .. وَيَتَمَكَّنُ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ بِرَغْمِ قِلَّةِ عَدَدِهِ وَعُدَّتِهِ مِنْ هَزِيمَةِ جَيْشِ الرُّومِ هَزِيمَةً سَاحِقَةً .. وَتَعُودُ (تُونُسُ) مَرَّةً أُخْرَى لِلْحُكْمِ الإِسْلامِيِّ بَعْدَ جَلاءِ الرُّومِ الْمُنْهَزِمِينَ عَنْهَا ..

وَقَدْ سَاعَدَ عَلَى انْتِصَارِ الْمُسْلِمِينَ فِى هَذِهِ الْمَعَارِكِ ، أَهْلُ الْقُرَى وَالْمَدَائِنِ الإِفْرِيقِيَّةِ ، الَّذِينَ رَفَضُوا أَنْ يُقَدِّمُوا الْعَوْنَ وَالْمُسَاعَدَةَ لِجُيُوشِ (هِرَقْلَ) وَقَدَّمُوهُمَا لِجُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ أَنْ وَازَنُوا بَيْنَ أَخْلاقِ وَسُلُوكِيَّاتِ الْمُسْلِمِينَ السَّمْحَةِ - الَّتِى تَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ، وَتَنْهَى عَنِ الظُّلْمِ وَالْبَغْىِ- وَبَيْنَ أَخْلاقِ جُنُودِ (هِرَقْلَ) السَّيِّئَةِ وَتَعَطُّشِهِمْ لِسَفْكِ الدِّمَاءِ .. فَاخْتَارُوا الانْحِيَازَ إِلَى جَانِبِ الْمُسْلِمِينَ ، كَمَا أَنَّ بَعْضَ الْبَرْبَرِ كَانُوا قَدْ اعْتَنَقُوا الإِسْلامَ مِنْ قَبْلُ وَبَدَءُوا يَشْعُرُونَ بِالْمَزَايَا الطَّيِّبَةِ الَّتِى يَنْشُرُهَا الإِسْلامُ ، وَلِهَذَا حَارَبُوا فِى صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ ضِدَّ الرُّومِ ..

بَعْدَ هَذَا الانْتِصَارِ السَّاحِقِ لِجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ بِقِيَادَةِ (مُعَاوِيَةَ بْنِ حُدَيْجٍ) يُقَرِّرُ خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ (مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِى سُفْيَانَ) أَنْ يَسْتَقِلَّ حُكْمُ شَمَالِ إِفْرِيقْيَا عَنْ حُكْمِ مِصْرَ (حَيْثُ كَانَ شَمَالُ إِفْرِيقْيَا مُنْذُ الْفَتْحِ الإِسْلامِىِّ الأَوَّلِ لَهُ يَخْضَعُ لِحُكْمِ حَاكِمِ مِصْرَ الْمُسْلِمِ) .. وَيُصْدِرُ (مُعَاوِيَةُ) قَرَارَهُ بِتَعْيِينِ (عُقْبَةَ بْنِ نَافِعٍ) حَاكِمًا عَامًا لِشَمَالِ إِفْرِيقْيَا ..

يَدْخُلُ (عُقْبَةُ بْنُ نَافِعٍ) إِفْرِيقْيَا فَاتِحًا بِعَشَرَةِ آلافِ فَارِسٍ ، فَيَنْضَمُّ إِلَى جَيْشِهِ كَثِيرُونَ مِنَ الْبَرْبَرِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ..



وَيَتَّخِذُ (عُقْبَةُ بْنُ نَافع) مِنْ مَدِينَةِ (تُونُسَ) مَقَرًا لِلْحُكْمِ الإسْلاَمِىِّ فِى شَمَالِ إفْرِيقْيَا ..

ثُمَّ يَتَخِذُ (عُقْبَةُ بْنُ نَافع) قَرَارَهُ بِإنْشَاءِ مَدِينَةٍ جَدِيدَةٍ ، هِىَ مَدِينَةُ (الْقَيْرَوَانِ) لِتَكُونَ عَاصِمَةً لِلحُكْمِ الْعَرَبِىِّ الإسْلامِىِّ الدَّائِمِ فِى شَمَالِ إفْرِيقْيَا ..

وَيَجْتَمِعُ (عُقْبَةُ بْنُ نَافع) بِقُوَّادِهِ وَمُسْتَشَارِيهِ وَمُهَنْدِسِيهِ ، وَيَعْرِضُ عَلَيْهِمْ فِكْرَةَ إنْشَاءِ العَاصِمَةِ الْجَدِيدَةِ .. فَيُشِيرُ عَلَيْهِ مُسْتَشَارُوهُ بِأَنْ يَكُونَ مَوْقِعُ الْمَدِينَةِ الْجَدِيدَةِ فِى مَكَانٍ بَعِيدٍ عَنْ سَاحِلِ الْبَحْرِ ، حَتَّى لاتَكُونَ مُعَرَّضَةً لِغَارَاتِ الرُّومِ الْبَحْرِيَّةِ ..

وَيَقَعُ اخْتِيَارُ (عُقْبَةُ بْنُ نَافع) عَلَى (وَادِى الْقَيْرَوَانِ) لِيَكُونَ هُوَ الْمَوْقِعَ الَّذِى سَتُقَامُ فِيهِ الْمَدِينَةُ الْجَدِيدَةُ ..





وَ يَقُومُ الْمُهَنْدِسُونَ بِرَسْمِ تَخْطِيطِ مَدِينَةِ الْقَيْرَوَانِ . . ثُمَّ يَقُومُ الْعُمَّالُ بِتَطْهِيرِ الْوَادِى مِنَ الأَحْرَاشِ وَالْحَيَوَانَاتِ الْمُفْتَرِسَةِ . . ثُمَّ يَبْدَأُ الْعَمَلُ فِى بِنَاءِ الْمَدِينَةِ الْجَدِيدَةِ ، فَيَبْدَءُونَ بِبِنَاءِ الْمَسْجِدِ ، الَّذِى هُوَ أَهَمُّ بِنَاءٍ فِى أَىِّ مَدِينَةٍ إِسْلامِيَّةٍ جَدِيدَةٍ . . وَيَكْتَمِلُ بِنَاءُ مَدِينَةِ (الْقَيْرَوَانِ) فِى خَمْسِ سَنَوَاتٍ . .

بَعْدَ ذَلِكَ يُنَظِّمُ (عُقْبَةُ بْنُ نَافِع) شُئُونَ الْمُسْلِمِينَ فِى شَمَالِ إِفْرِيقْيَا ، وَيُرْسِلُ الْوُفُودَ الإِسْلامِيَةَ لِنَشْرِ الإِسْلامِ بَيْنَ قَبَائِلِ الْبَرْبَرِ الْوَثَنِيَّةِ ، وَتَعْلِيمِهِمْ إِيَّاهُ . .

بَعْدَ ذَلِكَ يَقُومُ (مَسْلَمَةُ بْنُ مَخْلَد) بِعَزْلِ ((عُقْبَةَ بْنِ نَافِع) عَنْ حُكْمِ شَمَالِ إِفْرِيقْيَا ، وَيُوَلِّى بَدَلاً مِنْهُ قَائِداً آخَرَ هُوَ (أَبُو الْمَهَاجِر) فَيَتَّخِذُ (أَبُو الْمَهَاجِر) مَدِينَةً أُخْرَى غَيْرَ (الْقَيْرَوَان) عَاصِمَةً لِلْمُسْلِمِينَ فِى شَمَالِ إِفْرِيقْيَا . .

وَفِى هَذِهِ الأَثْنَاءِ يَتَجَرَّأُ الْبَرْبَرُ بِقِيَادَةِ مَلِكِهِمْ (كُسَيْلَةَ) عَلَى إِعْلاَنِ الثَّوْرَةِ ضِدَّ (أَبِى الْمَهَاجِر) . . لَكِنَّ (أَبَا الْمَهَاجِر) يَتَمَكَّنُ مِنْ إِخْمَادِ ثَوْرَةِ الْبَرْبَرِ ، وَيَأْسِرُ (كُسَيْلَةَ) فَيُعْلِنُ (كُسَيْلَةُ) إِسْلاَمَهُ ، وَيَتِمُّ إِطْلاقُ سَرَاحِهِ . .

وَيَتَولَّى (يزيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِى سُفْيَانَ) خِلاَفَةَ الْمُسْلِمِينَ ، فَيُعِيدُ (عُقْبَةَ بْنَ نَافع) لِيَتَولَّى حُكْمَ شَمَالِ إفْرِيقْيَا ، فَتَعُودُ (الْقَيْرَوانُ) عَاصِمَةً لِلْمُسْلِمِينَ فِى شَمَالِ إفْرِيقْيَا مَرَّةً أُخْرَى . .

ثُمَّ يَتَّخِذُ (عُقْبَةُ بْنُ نَافِعُ) قَرَارَهُ بِاجْتِيَاحِ بَقِيَّةِ بُلْدَانِ الشَّمَالِ الإفْرِيقِىِّ الَّتِى لَمْ تَدْخُلْ فِى الإِسْلام ، بِهَدَفِ وَضْعِ حَدٍّ لِغَارَاتِ الْبَرْبَرِ الْمُتَتَالِيَةِ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ .

تَزْحَفُ جُيُوشُ (عُقْبَةَ بْنِ نَافع) عَلَى جُمُوعِ الْبَرْبَرِ ، فَيُعْلِنُونَ إِسْلاَمَهُمْ ، وَيَدْخُلُونَ فِى دِينِ الله أَفْواجًا . .

وَتَصِلُ جُيُوشُ (عُقْبَةَ بْنِ نَافع) إلَى مَدِينَةِ (طَنْجَةَ) الْمَغْرِبِيَّةِ ، وَتُحَاصِرُهَا ، فَيُسَارِعُ (يُولْيَانُ) حَاكِمُ الْمَدِينَةِ التَّابِعُ لـ (هِرَقْلَ) بِعَقْدِ صُلْحٍ مَعَ (عُقْبَةَ بْنِ نَافع)وَيُؤَدِّى الجِزْيَةَ الْمَفْرُوضَةَ عَلَيْهِ لِلْمُسْلِمِينَ .

وَيُوَاصِلُ (عُقْبَةُ بْنُ نَافع) زَحْفَهُ حَتَّى يَصِلَ إلَى بِلادِ (السُّوس) فَيَقْتَحِمَ عَاصِمَةَ الْبَرْبَرِ ، وَالَّتِى كَانَتْ تُسَمَّى (قَصْرَ فِرْعَوْن) وَيُحَقِّقُ انْتِصَارَاتٍ سَاحِقَةً عَلَى الْبَرْبَرِ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ الله أَفْوَاجًا . .

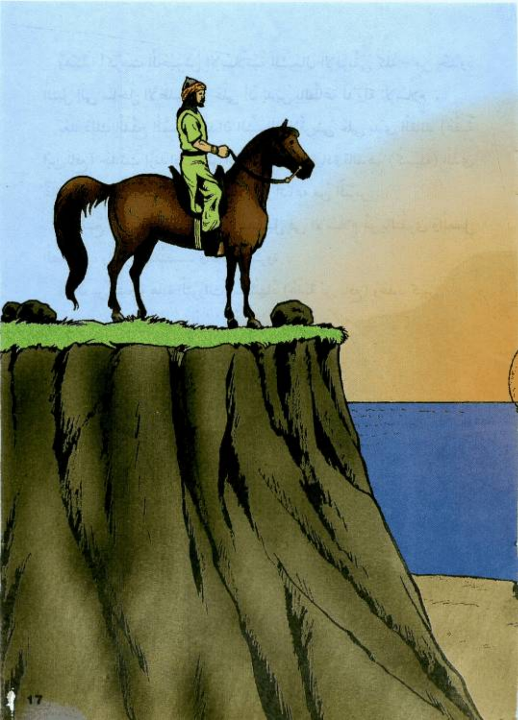


وَيَصِلُ (عُقْبَةُ بْنُ نَافع)فِى زَحْفِهِ أَخِيرًا إِلَى شَاطِئِ الْمُحِيطِ الأَطْلَسِىِّ الْمُطِلِّ عَلىَ إفْرِيقْيَا . . وَيَقِفُ مُمْتَطِيًا صَهْوَةَ جَوَادِهِ ، وَنَاظِرًا إِلى صَفْحَةِ الْمِيَاهِ الزَّرْقَاءِ الَّتى تَنْعَكِسُ عَلَيْهَا أَشِعَّةُ الشَّمْسِ الذَّهَبِيَّةُ . . ثُمَّ يَلْتَفِتُ خَلْفَهُ فَيَرى جَيْشَهُ الْقَوِىَّ يَمْلأُ الأُفُقَ ، فَتَفِيضُ عَيْنَاهُ بِالدَّمْعِ مِنَ التَّأَثُّرِ وَهُوَ يُنَاجِى رَبَّهُ قَائِلاً :

اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّى لَمْ أَخْرُجْ بَطَرًا وَلامُعْتَدِيًا . .

وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّنَا إِنَّمَا نَطْلُبُ السَّبَبَ الَّذِى طَلَبَهُ عَبْدُكَ ذُو الْقَرْنَيْنِ وَهُوَ أَنْ تُعْبَدَ فِى الأَرْضِ . .

اللَّهُمَّ إِنِّى لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ وَرَاءَ هَذَا الْبَحْرِ أَرْضًا لَخُضْتُهُ إِلَيْهَا نَاشِرًا دِينَكَ بَيْنَ أَهْلِهَا . .





وَهَكَذَا أَكْرَهَتِ الْجُيُوشُ الإسْلاَمِيَّةُ الشَّمَالَ الإفْرِيقِىَّ كُلَّهُ - مِنْ حُدُودِ النِيلِ إلَى سَاحِلِ الأطْلَسِىِّ - عَلَى أَنْ يَدِينَ بِالطَّاعَةِ لِدَوْلَةِ الإسْلام ..

بَعْدَ ذَلِكَ الْفَتْحِ الْمُبِينِ لِبُلْدَانِ الشَّمَالِ الإفْرِيقِىِّ عَلَى يَدَىِ الْقَائِدِ (عُقْبَةَ ابْنِ نَافِع) حَدَثَتْ ارْتِدَادَاتٌ وَثَوْرَاتٌ مِنَ الْبَرْبَرِ بِقِيَادَةِ قَائِدِهِمْ (كُسَيْلَةَ) الَّذِى غَاظَهُ أَنْ يُسَوِّى (عُقْبَةُ بْنُ نَافِع) بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَتْبَاعِهِ مِنَ الْبَرْبَرِ ..

لَمْ يَقْتَنِعْ (كُسَيْلَةُ) بِأَنَّ مِقْيَاسَ التَّفْضِيلِ فِى الإسْلاَمِ هُوَ بِالتَقْوَى وَالْعَمَلِ الْصَالِح ، وَلَيْسَ بِالْمَنْصِبِ وَالْجَاهِ وَالثَّرْوَةِ ..

وَكَانَ مِنْ نَتِيجَةِ هَذِهِ الثَّوْرَاتِ اسْتِشْهَادُ (عُقْبَةَ بْنِ نَافِع) وَعَدَدٍ كَبِير مِنْ قُوَادِ جَيْشِهِ ، فَقَدْ أَخَذَهُمُ الْبَرْبَرُ ، الْمُرْتَدُونَ عَلَى غِرَة ..



وَبَعْدَ اسْتِشْهَادِ (عُقْبَةَ) وَرِفَاقِه ، قَوِىَ سَاعِدُ الْبَرْبَرِ فَزَحَفُوا إِلى الْقَيْرَوَانِ ، وَحَاصَرُوهَا ، وَدَبَّ التَّمَرُّدُ وَالْعِصْيَانُ فِى صُفُوفِ الْجُنُودِ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ اسْتِشْهَادِ قُوَّادِهِمْ . .

ثُمَّ بَدَأَتِ الْمُفَاوَضَاتُ بَيْنَ (كُسَيْلَةَ) وَ (زُهَيْرِ بْنِ قَيْس) حَاكِمِ مَدِينَةِ الْقَيْرَوَانِ ، وَتَمَّ الإتِّفَاقُ عَلَى إِخْلاَءِ الْمَدِينَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . . فَارْتَدَّ الْمُسْلِمُونَ إِلىَ إِقْلِيمِ بَرْقَةَ فِى لِيبْيَا مَرَّةً أُخْرَى ، بَيْنَمَا تَوَلَّى (كُسَيْلَةُ) حُكْمَ بِلاَدِ الْمَغْرِبِ الْعَرَبِىِّ الَّتِى كَانَتْ تَحْتَ سَيْطَرَةِ الْمُسْلِمِينَ . .

وَهَكَذَا ظَلَّ الْمُسْلِمُونَ بَعِيدًا عَنِ الْقَيْرَوَانِ مُنْذُ عَام (٦٢هـ) . .وَفِى عَام (٦٩هـ) وَصَلَتْ إِمْدَادَاتٌ لـ (زُهَيْر بْن قَيْس) منَ الْخَلِيفَة (عَبْد الْمَلك بْن مَرْوَانَ) وَطَلَبَ مِنْهُ الْخَلِيفَةُ (عَبْدُ الْمَلِكِ) أَنْ يَزْحَفَ بِجُيُوشِهِ غَرْبًا لِقِتَالِ الْبَرْبَر الْمُرْتَدِّينَ بِقِيَادَة (كُسَيْلَةَ) .

فَلَمَّا عَلِمَ (كُسَيْلَةُ) بِقُدُوم جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ جَمَعَ الْبَرْبَرَ وَالرُّومَ وَأَشْرَافَ قَوْمِهِ وَأَصْحَابِهِ ، وَأَخْبَرَهُمْ بِضَرُورَةِ الرَّحِيلِ عَنْ مَدِينَة (الْقَيْرَوَان) لأَنَّهَا تَحْوِى كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَخْشَى مُسَاعَدَتُهُمْ لِجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ الْقَادِمِ بِقِيَادَة (زُهَيْرِ بْنِ قَيْس) ، وَأَيْضًا لِيَتَمَكَّنُوا مِنَ اللُّجُوءِ إِلَى الْجِبَالِ فِى حَالَةِ هَزِيمَتِهِمْ . .

وَبَعِيدًا عَنْ مَدِينَة (الْقَيْرَوَان) الْتَقَى جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ بِقِيَادَة (زُهَيْر بْنِ قَيْس) مَعَ جَيْشِ الْبَرْبَرِ بِقِيَادَة (كُسَيْلَةَ) . .

وَاشْتَدَّ الْقِتَالُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ ، وَفِى النِّهَايَة تَحَقَّقَ النَّصْرُ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَقُتِلَ (كُسَيْلَةُ) وَأَشْرَافُ قَوْمِه . .

وَدَخَلَ (زُهَيْرٌ) مَدِينَةَ (الْقَيْرَوَان) مُنْتَصِرًا ، فَوَلَّى حَاكِمًا مُسْلِمًا ، ثُمَّ اتَّخَذَ طَرِيقَهُ إِلَى مِصْرَ فِى قِلَّة مِنْ أَصْحَابِهِ . .



بَعْدَ مَصْرَعِ (كُسَيْلَةَ) تَوَلَّتْ (الْكَاهِنَةُ) - وَهِيَ زَعِيمَةُ الْبَرْبَرِ الدِّينِيَّةُ قِيَادَةَ الْبَرْبَرِ فِي حَرْبِهِمْ ضِدَ الْمُسْلِمِينَ . .

فَأَقَامَتْ فِي جَبَلِ (أوراس) وَبَسَطَتْ نُفُوذَهَا عَلَى قَبَائِلِ الْبَرْبَرِ فِي سُفُوحِ الأَطْلَسِ ، وَفِيمَا وَرَاءَهُ مِنَ الصَّحْرَاءِ . .

وَكَانَ وُجُودُ (الْكَاهِنَةِ) كَزَعِيمَةٍ لِلْبَرْبَرِ مِنْ أَهَمِّ الْعَوَامِلِ الَّتِي جَعَلَتِ الْبَرْبَرَ يَنْصَرِفُونَ عَنِ الدِّينِ الإِسْلاَمِيِّ ، وَيَعُودُونَ إِلَى دِيَانَتِهِمُ الْوَثَنِيَّةِ . .

وفِي نَفْسِ الْوَقْتِ تَصِلُ إِمْدَادَاتٌ مِنَ (الْقُسْطَنْطِينِيَةِ) لِمُسَاعَدَةِ الْبَرْبَرِ الْمُرْتَدِّينَ . وَيَنْزِلُ الْجُنُودُ الرُّومُ مِنْ مَرَاكِبِهِمْ فِي شَاطِئِ (بَرْقَةَ) . . وَيُغِيرُونَ عَلَيْهَا ، فِي نَفْسِ الْوَقْتِ الَّذِي يَصِلُ فِيهِ إِلَى (بَرْقَةَ) الْقَائِدُ (زُهَيْرُ ابْنُ قَيْس) وأَصْحَابُهُ الْقَلِيلُونَ ، فَيَسْتَبْسِلُونَ فِي الدِّفَاعِ عَنِ الْمَدِينَةِ ، وَيَسْتَشْهِدُونَ جَمِيعًا . .

وَيَعْلَمُ خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ (عَبْدُ الْمَلِك بْنُ مَرْوَانَ) بِمَا حَدَثَ مِنَ ارْتِدَادِ الْبَرْبَرِ ، وَإِمْدَادَاتِ الرُّومِ لَهُمْ ، فَيُرْسِلُ أَكْبَرَ جَيْشٍ إِسْلَامِيٍّ إِلَى إِفْرِيقْيَا ، وَهُوَ جَيْشٌ قِوَامُهُ (٤٠ أَلْفَ) مُقَاتِل يَقُودُهُ (حَسَّانُ بْنُ النُّعْمَانِ الْغَسَّانِيُّ) .

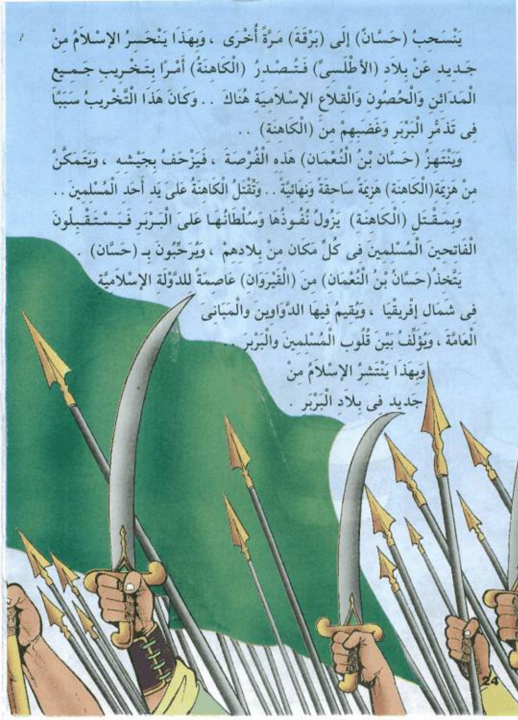
يَصِلُ جَيْشُ (حَسَّانَ) إِلَى (قَرْطَاجَنَّةَ) وَيُحَاصِرُهَا ، وَبِرَغْمِ مُسَاعَدَةِ الرُّومِ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ الْمُحَاصَرِينَ عَنْ طَرِيقِ الْبَحْرِ ، فَإِنَّ (حَسَّانَ) يَتَمَكَّنُ فِى النِّهَايَةِ مِنَ اقْتِحَامِ الْمَدِينَةِ ، فَيَفِرُّ مَنْ فِيهَا مِنَ الرُّومِ إِلَى الأُسْطُولِ ، وَيَهْرُبُونَ عَنْ طَرِيقِ الْبَحْرِ إِلَى (الأَنْدَلُسِ) وَ(صِقِلِّيَةَ) . .

وَيَتَمَكَّنُ حَسَّانُ مِنْ إِيقَاعِ الْهَزِيمَةِ بِالْبَرْبَرِ الَّذِينَ تَجَمَّعُوا لِلثَّأْرِ مِنْ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ .

لَكِنَّ (الْكَاهِنَةَ) تَقُودُ جَيْشاً كَبِيرًا مِنَ الْبَرْبَرِ وَتَتَمَكَّنُ مِنْ هَزِيمَةِ جَيْشِ (حَسَّانٍ) مِمَّا كَانَ لَهُ أَسْوَأُ الأَثَرِ فِى نُفُوسِ ... الْمُسْلِمِينَ ، فَهَذِهِ هِىَ الْمَرَّةُ الأُولَى الَّتِى تَنْهَزِمُ فِيهَا جُيُوشُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى هَذَا النَّحْوِ . .







يَنْسَحِبُ (حَسَّانٌ) إِلَى (بَرْقَةَ) مَرَّةً أُخْرَى ، وَبِهَذَا يَنْحَسِرُ الإِسْلَامُ مِنْ جَدِيدٍ عَنْ بِلَادِ (الأَطْلَسِيِّ) فَتُصْدِرُ (الْكَاهِنَةُ) أَمْرًا بِتَخْرِيبِ جَمِيعِ الْمَدَائِنِ وَالْحُصُونِ وَالْقِلَاعِ الإِسْلَامِيَّةِ هُنَاكَ .. وَكَانَ هَذَا التَّخْرِيبُ سَبَبًا فِي تَذَمُّرِ الْبَرْبَرِ وَغَضَبِهِمْ مِنَ (الْكَاهِنَةِ) ..

وَيَنْتَهِزُ (حَسَّانُ بْنُ النُّعْمَانِ) هَذِهِ الْفُرْصَةَ ، فَيَزْحَفُ بِجَيْشِهِ ، وَيَتَمَكَّنُ مِنْ هَزِيمَةِ (الْكَاهِنَةِ) هَزِيمَةً سَاحِقَةً وَنِهَائِيَّةً .. وَتُقْتَلُ الْكَاهِنَةُ عَلَى يَدِ أَحَدِ الْمُسْلِمِينَ ..

وَبِمَقْتَلِ (الْكَاهِنَةِ) يَزُولُ نُفُوذُهَا وَسُلْطَانُهَا عَلَى الْبَرْبَرِ فَيَسْتَقْبِلُونَ الْفَاتِحِينَ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ مِنْ بِلَادِهِمْ ، وَيُرَحِّبُونَ بِـ (حَسَّانَ) .

يَتَّخِذُ (حَسَّانُ بْنُ النُّعْمَانِ) مِنَ (الْقَيْرَوَانِ) عَاصِمَةً لِلدَّوْلَةِ الإِسْلَامِيَّةِ فِي شَمَالِ إِفْرِيقْيَا ، وَيُقِيمُ فِيهَا الدَّوَاوِينَ وَالْمَبَانِيَ الْعَامَّةَ ، وَيُؤَلِّفُ بَيْنَ قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ وَالْبَرْبَرِ ..

وَبِهَذَا يَنْتَشِرُ الإِسْلَامُ مِنْ جَدِيدٍ فِي بِلَادِ الْبَرْبَرِ .